مَنْ هو «العُماني الطبيب»؟

محمد الشيخ ■

عندما كنتُ أُعيدُ قراءة كتاب: «تتمة صوان الحكمة» ـ المعروف أيضاً باسم «تاريخ حكماء الإسلام» ـ للبيهقي الحكيم، لفتت انتباهي ترجمة يتيمة لطبيب تحت عنوان: «العُماني الطبيب». ومما حيّرني في هذه الترجمة أمور أربعة: **أولاً:** تتركنا هذه «الترجمة» أمام لقب «العُماني الطبيب»، بلا اسم ولا كنية، وهذا أمرٌ نادر الحدوث في كتبِ التراجم. **ثانياً:** لا تشير هذه الترجمة لا إلى تاريخ ميلاده ولا إلى تاريخ وفاته، بل لا تشير حتى إلى العصر الذي عاش فيه تقريباً أو جزافاً. **ثالثاً:** لا تذكر هذه الترجمة شيوخه ولا تلامذته. **رابعاً:** لا تشير هذه الترجمة إلى كتبه. إنما هي ترجمة غُفْلٌ لطبيب غفل لا تتعدى الأربعة الأسطر: «كان أبو الخير أثنى على العُماني وقال: هو أقوى أهل الزمان في صناعته. ومن كلماته قوله: «**حق على المرء أن يوكل معه كالئين، أحدهما يكلؤه من أمامه والآخر من ورائه، وهما عقله وأخوه الناصح**». «ما ينفعك في ذاتك فاطلبه، وإن لم يكن فيه افتخار، وما يضرك في الدنيا والآخرة فاتركه وإن كان به افتخار». «من استبد بمعالجته في

■ أستاذ الفلسفة السياسية وفلسفة الدين، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء.

حال مرضه وإن كان طبيباً حاذقاً فقد يعرض للخطأ بجهده والاستشارة أداة كاملة»[1]. لست أدري كيف ذكّرتني هذه الأسطر القليلة بترجمة طبيب آخر عماني هو أبو محمد عبد الله بن محمد الأزدي الصحاري (ابن الذهبي)، صاحب «كتاب الماء»، الذي ذكره ابن أبي أصيبعة، صاحب كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، فقال: «هو أبو محمد عبد الله بن محمد الأزدي، ويُعرف بابن الذهبي، أحد المعتنين بصناعة الطب، ومطالعة كتب الفلاسفة، وكان كلفاً بصناعة الكيمياء، مجتهداً في طلبها. وتوفي ببلنسية في جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وأربعمائة، ولابن الذهبي من الكتب مقالة في أن الماء لا يغذو»[2]. قلت في نفسي: ترى ما «لعنة» الأسطر القليلة ـ التي لا تتعدى أربعة أسطر وفي أحسن الأحوال خمسة أسطر ـ التي صُبَّتْ على حكماء عُمان على ندرتهم وقلتهم؟

الغريب أن الطبعات الأربع المتوفرة من كتاب البيهقي ـ سواء اتخذت اسم «تاريخ حكماء الإسلام» أو اسم «تتمة صوان الحكمة» لا تعلّق بأي تعليق على ترجمة «العُماني الطبيب». اللهمَّ باستثناء تحقيق كرد علي الذي يعلق على الترجمة بالقول: «في كتاب الجماهر للبيروني نقل عن أبي العباس العُماني، وما ندري هل هو هذا؟»[3].

ها نحن أولاء أمام اسم غفل «الطبيب العُماني» بلا نسب، ولا تاريخ ميلاد، ولا تاريخ وفاة، أشبه ما يكون بشبح. وما بقي من هذا الطبيب الشبح سوى أمرين: شهادة حافلة في حقّه من لدن أبي الخير، وثلاثة أقوال منسوبة إليه.

تساءلت مع نفسي: وماذا لو كان الأمر يتعلّق بالحكيم العُماني أبي محمد عبد الله بن محمد الأزدي الصحاري (الملقب بابن الذهبي)، صاحب «كتاب

1ـ ظهير الدين البيهقي: **تاريخ حكماء الإسلام**، تحقيق: ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1996م، ص91.

2ـ ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، دار الثقافة، بيروت، دون سنة إصدار، الجزء الثالث، ص80.

3ـ ظهير الدين البيهقي: **تاريخ حكماء الإسلام**، تحقيق: محمد كرد علي، ص80.

الماء»؟ بل ماذا لو كان يتعلّق الأمر بشخصٍ آخر، «أبي العباس العُماني» مثلاً أو غيره؟ كيفما كان الحال، فإننا نكون ـ في حال السلب ـ قد «ربحنا» «طبيباً» عُمانياً آخر يضاف إلى بقية أطباء، بل عائلات أطباء وحكماء ـ عُمان شبه المجهولين.

بدايةً، انتحى البحث عندي منحيين:

منحى أول هو منحى التحقق من الأقوال الحكيمة الصادرة عن «العُماني الطبيب» وإيجاد «أصول» لها أو «نظائر» فيما وصلنا مما كتبه «ابن الذهبي»، وهو حسب مبلغ علمي كتاب واحد هو «كتاب الماء». وهي الأقوال الحكيمة الثلاثة:

ها نحن أولاء أمام اسم غفل «الطبيب العُماني» بلا نسب، ولا تاريخ ميلاد، ولا تاريخ وفاة، أشبه ما يكون بشبح. وما بقي من هذا الطبيب الشبح سوى أمرين: شهادة حافلة في حقّه من لدن أبي الخير، وثلاثة أقوال منسوبة إليه.

1ـ «حق على المرء أن يوكل معه كالئين أحدهما يكلؤه من أمامه والآخر من ورائه، وهما عقله وأخوه الناصح».

2ـ «ما ينفعك في ذاتك فاطلبه، وإن لم يكن فيه افتخار، وما يضرك في الدنيا والآخرة فاتركه وإن كان به افتخار».

3ـ «من استبد بمعالجته في حال مرضه وإن كان طبيباً حاذقاً فقد يعرض للخطأ بجهده والاستشارة أداة كاملة». غير أن كل محاولتي للعثور عن نظير ـ قريب أو بعيد ـ لهذه الحِكَم الطبية في كتاب الماء باءت بالفشل.

على أننا نعثر على العبارة الأولى في شرح «(نهج البلاغة)» لابن أبي الحديد؛ حيث ترد العبارة على النحو التالي: «وقال بعض الحكماء ينبغي للإنسان أن يوكل بنفسه كالئين أحدهما يكلؤه من أمامه والآخر يكلؤه من ورائه وهما عقله الصحيح وأخوه النصيح، فإن عقله ـ وإن صحّ ـ فلن يبصره من عيبه إلا بمقدار ما يرى الرجل من وجهه في المرآة، ويخفى عليه ما خلفه، وأما أخوه النصيح فيبصره ما خلفه وما أمامه أيضاً». وفيها توسعة لم توجد في «الأصل»، كما ذكرت غُفلاً عن اسم صاحبها: «قال بعض الحكماء».

وأما العبارتان الحِكَميتان الثانية والثالثة، فلم أوفق في العثور لهما على «أشباه» و«نظائر» فيما بين يديّ من كتب الحكمة.

فكان هذا إذن طريقاً غير نافذ.

وهل هناك من طريق نافذ؟

الطريق الثاني الممكن سلكه هو ديباجة الترجمة التي تشير إلى أنه: «كان أبو الخير أثنى على العُماني وقال: هو أقوى أهل الزمان في صناعته». وبداية التساؤل عمن يكون أبو الخير هذا؟

الحقيقة أنه قادني استقصائي إلى أنه قد يكون أحد اثنين:

أولاً: أبو سعيد بن أبي الخير الصوفي، وهو الذي ينحدر عنه سليله محمد بن المنور بن أبي سعيد بن أبي طاهر سعيد بن أبي سعيد بن أبي الخير، صاحب كتاب: «أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد»، والشيخ أبو سعيد هذا هو ابن أبي الخير، وأبو الخير هذا هو الذي عاصر ابن سينا، بدليل أنه كتب إليه الشيخ الرئيس وصية أوردها ابن أبي أصيبعة في أنبائه[1].

وإذا صحّ هذا الفرض طرح السؤال: ترى ما الذي يجمع بين الرجلين؟ والجواب أن الجامع بينهما هو ابن سينا: كلاهما كان معاصراً لابن سينا، كلاهما تلمذ لابن سينا، وقد توفي صاحبنا عام 456 للهجرة وتوفي أبو الخير عام 460 للهجرة، وقد كانا متعاصرين.

لكن ما أشكل عليَّ هنا هو أن أبا الخير هذا صوفي، وصاحبنا طبيب، ويستبعد أن «يقوم» صوفي بتقويم طبيب، فيحكم عليه: «كان أبو الخير أثنى على العُماني وقال: هو أقوى أهل الزمان في صناعته». والذي رجح عندي أنه ليس من المستبعد ألا يقوّم طبيباً إلا طبيب مثله.

فمن يكون أبو الخير هذا إن لم يكن أبا الخير الصوفي؟

1ـ ابن أبي أصيبعة، **طبقات الأطباء**، الجزء الثالث، ص14.

ثانياً؛ قادني استقصائي إلى أبي خير آخر طبيب هو الذي ترجم له صاحب تتمة صوان الحكمة بالقول: «الحكيم أبو الخير الحسن بن بابا بن سوار بن بهنام. كان بغدادي المولد وقد حمل إلى خوارزم، ثم لما استولى السلطان محمود بن سبكتكين على خوارزم حمله إلى غزنة، وعرض عليه الإسلام فأبى، وعمره جاوز المائة. فمر يوماً بمكتب فيه معلم حسن الصوت يقرأ سورة: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: 1، 2]، فوقف وبكى ساعة ومر، فرأى في هذه الليلة في منامه النبي ﷺ وهو يقول له: **يا أبا الخير مثلك مع كمال علمك يقبح أن تنكر نبوتي**، فأسلم أبو الخير في منامه على يد رسول الله، فلما انتبه من منامه أظهر الإسلام، وتعلم الفِقه على كبر سنه، وحفظ القرآن، وحسن إسلامه.

الطريق الثاني الممكن سلكه هو ديباجة الترجمة التي تشير إلى أنه: «كان أبو الخير أثنى على العُماني وقال: هو أقوى أهل الزمان في صناعته». وبداية التساؤل عمن يكون أبو الخير هذا؟

وقد حكم له أبو الريحان المنجم بنكبة قاطعة، فدعاه السلطان محمود يوماً لعارض عرض له، وبعث إليه مركوبه، فمرّ على سوق الخفافين فنفرت دابته، وأهلكت أبا الخير. وتمام قصته وقصة ابنه أبي علي بن أبي الخير مذكور في تاريخ آل سبكتكين. وقد صنف ذلك التاريخ أبو الفضل محمد بن الحسن البيهقي الكاتب.

وقال أبو علي بن سينا في بعض كتبه: فأما أبو الخير فليس من عداد هؤلاء، ولعلَّ الله يرزقنا لقاءه، فيكون إما إفادة وإما استفادة. وبعض الناسخين يكتب فأما أبو نصر وهذا غلط عظيم؛ لأن أبا نصر الفارابي مات قبل ولادة أبي علي بثلاثين سنة.

وقد أفرد السلطان محمود للحكيم أبي الخير ناحية يقال لها ناحية خمارو، ونسب أبو الخير إلى تلك الناحية، وقيل له: أبو الخير خمارو، تمييزاً بينه وبين أبي الخير صاحب البريد بقصدار، وقد سها من قال: أبو الخير الخمار.

وله تصانيف كثيرة في أجزاء العلوم الحكمية، ورأيت له رسالة إلى الوزير الأمين أبي أسعد فيها كلمات نافعة شافية.

وقيل لأبي الخير بقراط الثاني، وحق له ذلك، فإن النبي ﷺ سمّاه في منامه عالماً.

وسُـئل أبو الخير حين كان نصرانياً عمّا يأكل ويشـرب كل يوم، فقال: المُدَقَّقَةُ والمرققة والمبلقة والمروقة.

وله تصانيف لطيفة في تدبير المشايخ عجيب جداً.

ومما نقل عنه: «أحسن القول ما وافق الحق. من طلب ما في أيدي الناس حقروه، ومن صنع خيراً أو شراً فبنفسه ابتدأ. والمتمسك بالغرور كالمقتبس من ضوء البرق الخاطف»[1].

على أن أبا الخير هذا له كتاب مفقود لم يذكره البيهقي في ترجمته هو كتاب: «امتحان الأطباء». فلربما كان فيه قد قوم العديد من أطباء زمانه، لا سيما وأنه قَوَّمَ «العُماني الطبيب» بالقول: «هو أقوى أهل الزمان في صناعته»، وما قال: «هو أقوى أهل زمانه فـي صناعته»، بما يدلُّ على أنه كان معاصراً لصاحبنا أبـي محمد عبد الله بن محمـد الأزدي الصحاري (ابـن الذهبي)، صاحب «كتاب الماء».

وما كان غريباً عن أبي الخير أن يقوّم أطباء زمانه؛ ففي ترجمة الطبيب أبي الحسن بن تكين البغدادي الضرير، نقرأ ما يلي: «قاد الحكمة بزمامها، وكان مكفوفاً يقوده تلميذه إلى ديار المرضى. وكان أبو الخير يهجنه في كتاب امتحان الأطباء. وقال: من قاد أعمى شهراً ـ يعني ذلك الطبيب ـ تطبب وعالج وأهلك النـاس. وقال ابن تكيـن: إن الحمية فـي النهاية ليسـت بمحمودة، والطرفان من الإجحاف والإسـراف مذمومان، والواسطة أسلم». وفي ترجمة الحكيم العالم أبي القاسـم الكرماني ورد: «وكتب الحكيـم أبو الخير إليه رسالته المعروفة»[2]، وفي ترجمة الحكيم دانيال الطبيب يروي قصة عنه ويقول: «كما ذكره أبو الخير في كتابه محنـة الأطباء»[3]. وفي ترجمة ابن هندو ورد: «كان أديباً فاضلاً حكيماً مقتبسـاً من فوائد الحكيم أبي الخير الحسـن بن

1ـ ظهير الدين البيهقي: **تاريخ حكماء الإسلام**، تحقيق ممدوح حسن محمد، ص36 - 37.

2ـ المصدر السابق، ص61.

3ـ المصدر السابق، ص93.

سـوار»[1]. ويضيف: «وذكـر أبو الفرج في كتـاب المفتـاح أن متكلماً كان في جوارنا، وصنّف كتاباً في إبطال علم الطب، وحثَّ تلامذته على درسه، فعرض له صداع فبعث تفسـرته إلى الحكيم أبـي الخير، فقال الحكيـم أبو الخير لرسوله: قل له: ضع تصنيفك في إبطال علم الطب تحت وسادتك، وضع عليها رأسـك، فإنه لا حاجة لك إلى الطبيب والطب. فما عالجه واحد من الأطباء حتى اعترف ببطلان كلامه ومزّق تصنيفه وتاب. ثم عالجناه وشفاه اللّه تبارك وتعالى». وفي ترجمـة نجيب الدين أبي بكر الطبيب النيسـابوري ورد: وقال الحكيم أبو الخير في كتاب امتحان الأطباء: إنه يجب أن يكون الطبيب حسن القد، صحيح الأعضاء، متناسـبة فـي مقاديرها حسنة في شكلها، قوية في وضعها، معتدل المزاج، ناعم الكف، وإن تكون الفرج بين أصابعه واسعة، ولونه مائلاً إلى البياض، مشرب الحمرة، معتدل الشـعر في الكثرة والقلّة والسـباطة والجعودة، أشـهل العينين، يخالط نظره دائماً سرور وفرح، وفيه بشاشـة وطلاقة. فأما في نفسـه فأن يكون ذكياً ذكوراً، جيّد التصور، قوي الحدس والتخمين صبوراً علـى التعب والنصب فـي درك الحق من الأمور، كتوماً متحملاً ما يسمعه من المرضى»[2].

مما نقل عنه: «أحسن القول ما وافق الحق. من طلب ما في أيدي الناس حقروه، ومن صنع خيراً أو شراً فبنفسه ابتدأ. والمتمسك بالغرور كالمقتبس من ضوء البرق الخاطف».

إذا صـح أن «العُمانـي الطبيب» هذا ليس سـوى صاحبنـا أبي محمد عبد اللّه بن محمد الأزدي الصحاري (ابـن الذهبي)، صاحب «كتاب الماء»، كان لازماً التعريف به. فهذا الرجل الذي كان تلميذ تصانيف الخليل بن أحمد الفراهيـدي ـ بلديه ـ والذي تلمذ تلمذة مباشـرة على يـد دهاقنة الصيدلة والطب فـي زمنه ـ البيروني وابن سـينا ـ يضاف إليهما أحـد كبار الأطباء أبو الحسن الحرالي ـ والذي توفي 365 للهجرة بما دلَّ على أن صاحبنا ترك بلده بغاية التتلمذ صغيراً، إذ هو من وفيات 456 للهجرة وأنه عمّر طويلاً.

1ـ المصدر السابق، ص107.

2ـ المصدر السابق، ص177.

وهو الذي يقول في مقدمة كتاب الماء: «وقد عولت في هذا الكتاب على ما اختبرته بنفسي، وما أفاضه عليَّ الشيوخ الأطباء الكبار؛ فأولهم استحقاقاً للتنويه الشيخ العلّامة ابن سينا، فله على كل كلمة هاهنا عارفة، وعلى كل علم نوَّلنيه طارفة. فمنه أخذت معظم أبواب الطب.

وعن أبي عبد الرحمٰـن الخليل بن أحمد أفدت تعريب ما كنتُ أصّلت من أسماء ومسميات.

فإليهما فضل ما في الكتاب من طب نافع، ومعنى شافع»[1].

فهو يذكر شـيخه ابن سـينا وما أفاده منه المرار الأوفى. وهكذا، فإنه بمناسبة مقالته الأولى عن «الماء» ينتقل إلى الحديث عن الماء عند الأطباء بمعنى «البول»، وسرعان ما يضيف: «وهو فن من فنون الصنعة لم نعرف من أجاده إجادة شـيخنا العلّامة ابن سـينا»[2]، ثم ما يفتأ يـردد عبر صفحات الكتاب العبـارة: «وقد ذكر [أو: وقال] شـيخنا العلّامة ابن سـينا...»[3]. أو «وأخبرنا شيخنا العلّامة...»[4]، و«حدثني شيخنا العلّامة»[5]، أو «وقال شيخنا العلامة... وحدثني...»[6]، أو «وحدثنا شيخنا العلّامة»[7]، و«وفي عبارة شيخنا العلامة...»[8]، و«وقد سمعناه من شيخنا العلّامة»[9]، و: «سمعت شيخنا العلّامة

1ـ أبو محمد عبد الله الأزدي الصحـاري: **كتاب الماء**، تحقيق هادي حسـن حمودي، وزارة التراث القومي والثقافة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، 1416هـ/1996م، ص 31.

2ـ المصدر السابق، المجلد الأول، ص 38.

3ـ انظر، مثلاً، الجـزء الأول، ص 44، ص 52، ص 69، ص 101 و 102، ص 123، ص 160، ص 165، ص 217، ص 256، ص 266. الجزء الثاني، ص 24، ص 33، ص 146، ص 284، ص 313، ص 387، ص 396، الجـزء الثالـث، ص 34، ص 149. ص 158، ص 217، ص 280، ص 284، ص 300، ص 362، ص 377، ص 392، ص 400، ص 418، ص 421، ص 433، ص 438، ص 481، ص 486، ص 506، ص 507.

4ـ انظر مثلاً، الجزء الأول، ص 112.

5ـ انظر مثلاً، الجزء الثاني، ص 287.

6ـ انظر مثلاً، الجزء الثالث، ص 369.

7ـ انظر مثلاً الجزء الثالث، ص 61.

8ـ انظر مثلاً، الجزء الأول، ص 114.

9ـ انظر مثلاً، ص 74.

يقــول: ...»[1]، و«أنشــدنا شــيخنا العلّامــة لنفســه»[2]، و«وســمعت الشــيخ يقول: ...»[3]، ويبدي شدة احترامه لشيخه وإعجابه به: «ولله در شيخنا العلّامة ما أفقهه في الدنيا وتباغض أهلها وتحاســدهم»، ويــورد قصيدة له في ذم الحسد، ويضيف بعد إيراد القصيدة: «وللشــيخ في ذم الدنيا وأهلها ما هو حقيق بالتســجيل لأهل البصائر والاعتبار»، ويورد قصيدة له بهذا الشــأن[4]. ويقول في مكان آخر: «ولله در شيخنا العلّامة ابن سينا» ويورد شعراً له في حاسده[5]، وفي مكان آخر: «ولله در شيخنا العلّامة إذ جمع بين الوعد والوعيد [في بيت شعري واحد]»[6]، ويقول عن داء الجدري: «وخيَّرنا شيخنا في علاجه بين... و..»[7]،

يقول أبو الخير في مقدمة كتاب الماء: «وقد عولت في هذا الكتاب على ما اختبرته بنفسي، وما أفاضه عليَّ الشيوخ الأطباء الكبار؛ فأولهم استحقاقاً للتنويه الشيخ العلّامة ابن سينا.

وعادة ما كان يبدي رأيه بكلِ شجاعةٍ: «قلت: وبالجملــة فعلاجه يرجــع إلى اجتهــاد الطبيب بحسب ما يراه في وقته». أكثر من هذا، لا يفقد حسّــه النقدي حتى أمام أول أشهر أطباء العرب الحارث بــن كلدة الثقفــي، حيث يقــول: «وقال الحارث بــن كلدة الثقفي، وكان فــي اليمن: من ســره البقاء ولا بقاء، فليباكر الغــذاء، وليعجل العشاء، وليخفف الرداء، وليقل الجماع»، ويعقب على هــذه النصائح الطبيــة بالنزوع التنســيبي الواضح: «فإن كان أراد أن ما ذكره يطيــل العمر، فلا أحُقُّه. ولكل طبيعته، وربما أضرَّ بواحد ما انتفع به غيــره»[8]. وفي هذا القول منتهى الحكمة. أكثر

1- انظر مثلاً الجزء الثالث، ص 460.
2- انظر مثلاً، الجزء الثاني، ص 386.
3- انظر مثلاً، الجزء الثالث، ص 137.
4- **كتاب الماء**، الجزء الثاني، ص 89.
5- المصدر السابق، الجزء الثالث، ص 174.
6- المصدر السابق، الجزء الثالث، ص 492.
7- انظر مثلاً، **كتاب الماء**، الجزء الأول، ص 249.
8- **كتاب الماء**، الجزء الأول، ص 278.

من هذا، تجده واقعياً كل الواقعية في أحكامه التنسيبية هذه. أَوَلست تلفيه يقول في مدخل «عمر»: «العُمْر والعُمُر: مدة بقاء النفس مع الجسم، والجمع أعمار. ولما تعذر دوام بقاء بدن الإنسان كان زمان بقائه منقطعاً متناهياً. وذاك هو العمر. وتناهي الزمان لا يلزمه أن يكون بقدر معين، فلذلك ما اشتهر بين العوام أن العمر الطبيعي للإنسان مائة وعشرون سنة لا أصل له. ويجوز أن يعيش الإنسان ألوفاً من السنين... وإذا ما استقرينا أعمار الناس في هذا الزمان وجدنا أكثرها ما بين الستين إلى السبعين، وأن عمر الإنسان لا يتجاوز مائة سنة إلا في النادر جداً. وما يقال من أن بعض أهل السند والصين يعيشون كثيراً حتى يتجاوز كثير منهم مائتي سنة فلا صحة له»[1].

وهو الذي في باب الجراد يقر بالتلمذة لأبي الحسن الحرالي، فيقول: «وحدثني أبو الحسن الحراني رَحِمَهُ اللهُ ....»[2].

ويعود إلى البيروني العودات الكثيرة[3] طيلة كتابه، لكن أبهى عبارة تدلُّ على التلمذة المباشرة عليه هي التي يقول فيها: «وسمعت البيروني يقول: ...»[4].

لكن ما يميّز الرجل هو استقلاله الفكري وجرأته على قول رأيه بجرأة، فكثيراً ما أورد رأياً رائجاً من آراء العامة حيث تعشش الخرافة، وقال عنه: «لا أحقه». انظره مثلاً في باب «الببغاء» حيث يقول: «وقيل: إن لسانه يوجب الفصاحة أكلاً، ولا أحُقُّهُ»[5]، وانظره يورد الرأي القائل بأن من خواص الأترج أنه: «إذا جُففت منه نبتة تامة ببذرها وورقها وزهرها وحُملت أورثت القبول والمهابة»، ويعقب بالقول التنويري: «كذا قيل، ولا أدري كيف هو»[6]. بل يردُّ على أحد أكبر أطباء الحضارة العباسية إسحاق بن سليمان الإسرائيلي فيما

1- المصدر السابق، الجزء الثالث، ص 69.
2- **كتاب الماء**، المجلد الأول، ص 258.
3- انظر مثلا، الجزء الأول، ص 52، ص 69، ص 107،
4- انظر، الجزء الثاني، ص 440.
5- المصدر السابق، الجزء الأول، ص 100.
6- المصدر السابق، ص 194.

ذهب إليه من أن «التدخن بثمرة [الصليب الرومي] ينفع المجانين والمصروعين ويبرئهم، وكذلك إن أخذت من ثمرته وشربتها مع الجلنجبين نفعت نفعاً شديداً»، يعقب بالقول: «والظاهر أن هذا النفع خاص بعود الصليب الرومي، فأما الذي وقفنا عليه من أمر عود الصليب الهندي، عياناً وتجربة، فليس فيه ذلك»[1]. أكثر من هذا يذهب في مذهبه النقدي مذهباً قصياً، ففي مدخل الطمث يستعرض بعض الآراء الطبية في الموضوع ممهداً لها بالقول: «وقرأتُ في كتب الأطباء المتقدمين ومقالاتهم ما لا أعرف له وجهاً...»[2].

ويقول: «الأرجى أن يُعدل إلى الغذاء ما أمكن الاستغناء عن الدواء»[3]، وهو رأي العديد من مهرة أطباء اليونان. ووجد في نسخة من كتابه في مادة «بضع»: «واستبضعت الشيء: جعلته بضاعة (وبالله نعوذ ممن جعل الطب بضاعة، وهو الفاشي اليوم بين الناس)»[4]. ويقول: «واعلم أن أول الطب معرفة مقدار الداء حتى يعالج بمقدار ما يحتاج إليه من علاج»[5].

إنَّ ما يميّز الرجل هو استقلاله الفكري وجرأته على قول رأيه بجرأة، فكثيراً ما أورد رأياً رائجاً من آراء العامة حيث تعشش الخرافة، وقال عنه: «لا أحقه».

ومن أروع ما كتب ما لخص به كل ما قاله الفلاسفة والطبيعيون عن ظاهرة الإبصار:

«ومذهبنا في الإبصار أنه يتم بأن يقع شبح المرئي على الحدقة، ثم تنقله إلى أمام القوة الباصرة، فإذا أدركت هذه القوة ذلك الشبح كان سبباً لشعور النفس بالمرئي فتدركه.

وقد قيل: إن النفس تدرك المحسوسات كلها بلا واسطة، وأنه ليس للبصر قوة باصرة ولا للشمِّ قوة تدرك الرائحة ونحو ذلك، بل المدرك لهذه

1- **كتاب الماء**، الجزء الثاني، ص 410.
2- **كتاب الماء**، الجزء الثاني، ص 470.
3- المصدر السابق، الجزء الأول، ص 114.
4- المصدر السابق، الجزء الأول، ص 135.
5- المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 451.

الأشياء كلها هو النفس. وأكثر الفلاسفة ينقضون هذا الرأي، ويقولون: إن إدراك النفس لهذه الأشياء إنما يكون بتوسط إدراك القوى المخصوصة بها، ثم ينتقل ذلك الإدراك إلى النفس، والحقُّ أن الأمر كذلك.

وللفلاسفة في إدراك المبصرات رأيان: **أحدهما:** رأي الرياضيين وأكثر الأطباء، وهو أن يكون بخروج شعاع من العين ويلقى المبصَر، **وثانيهما:** رأي أكثر الطبيعيين، وهو أن يكون بوصول شبح المرئي إلى العين.

والأولون اختلفوا، فمنهم من يجعل من خروج هذا الشعاع على هيئة مخروطين، رأس كل واحد منهما في حدقة، وقاعدتهما هي السطح الظاهر من المرئي؛ ومنهم من يجعل خروجه لا على هيئة مخروطين، بل من كل حدقة خط مستقيم، ويلتقيان على سطح البصر، وينتقل طرفاها على المبصَر بسرعة.

والحقُّ أن وصول شبح المرئي، إنما يكون على هيئة مخروطين، قاعدتهما المُبصَر وزاويتهما في الرطوبة الجليدية، وموضع الشبح هو في سطح هذه الرطوبة. وربما كان موقعه في الطبقة العنكبوتية.

وأما كيف يتأدى المبصَر إلى القوة الباصرة، فمنهم من يعترف بالجهل بذلك، ومنهم من يزعم أن هذا الشبح انفعال يعرض للجليدية، وإذا عرض ذلك فإن العصب النوري يدرك من هذا الانفعال، ويؤديه إلى داخل الدماغ.

وأما الحق في هذا فهو أن الشبح يقع على داخل المقلة، ثم تنقله كل واحدة من المقلتين إلى العصب النوري أمام القوة الباصرة. وهناك يتخذ الشبحان شبحاً واحداً بانطباق أحدهما على الآخر، فتدركه القوة الباصرة، ثم تنقله إلى داخل البطن المقدم من الدماغ فيبقى هناك محفوظاً، فكل وقت تلحظ النفس ذلك الشبح تتخيّل ذلك المرئي»[1]. فانظره كيف يكثف في هذه اللحظة كل النظريات عن الإبصار في صفحة واحدة، وكيف يبدي رأيه في موضوع الإبصار بجرأةٍ عجيبة.

والرجل جوالة شديد التجوال. وهو من كان يوصف عند القدماء بأنه كان

1ـ **كتاب الماء**، الجزء الأول، ص 132.

«سفَّاراً». إذ يذكر في كتابه من البلاد الكثير التي زارها. ففيما يخصُّ مسقط رأسه يورد المدخل «صحار»، يقول بعد كلام: «وصحار: قصبة عُمان، مدينة طيبة الهواء كثيرة الخيرات، سميت بصحار بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام:

ديار بها شـــدت علـــيَّ تمائمي وأول أرض مس جلدي ترابها»[1].

ويقول في باب «الرنج» ـ وهو حب أملـس مدور على قدر حب الماش لا رائحة لـــه، يكثر في بلاد الهند ومـــا وراء النهر ـ: «وقـــد رأيته في جرجان كثيراً، وكان البيروني كثير العناية به لنفعه الكبير»[2]، ويقول عن بقلة الرمان: «وهي بقلة تكثر في ثغور الأندلس»[3]، بما لربما يفيد أنه كتب الكتاب وهو في الأندلس. ويقول عن شـــجر البهـــق: «وقد رأيت الناس فـــي صحار ومكـــة يمضغونـــه بقليل كلس ليطيب طعمه ويسرع بممازجته للأرواح»[4]، ويقول عن الزقوم: «رأيته في أريحا من أرض الغور وفي أرض المقـــدس»[5]، ويقـــول عـــن شـــجرة التنوم: «والتنومة: شجرة رأيتها في بادية اليمن وعُمان»[6]. ويبـــدو أن الرجل ما غادر عُمان مغـــادرة نهائية، فقد يكون تردد عليها على الأقل مرتين. يقول عن العنب الجرشي: «وكانت أشـــجاره تغطي الرؤية بين مسقط وصحار، ولم يبق منها اليوم إلا ما تفرّق هنا وهنالك»[7].

للفلاسفة في إدراك المبصرات رأيان: أحدهما: رأي الرياضيين وأكثر الأطباء، وهو أن يكون بخروج شعاع من العين ويلقى المبصَر، وثانيهما: رأي أكثر الطبيعيين، وهو أن يكون بوصول شبح المرئي إلى العين.

وأخيـــراً يبدو أن له مقالة غير المدخل الـــذي خصه للماء في معجمه الطبي ـ كتاب الماء ـ ســـماها: «وعلاج كل أوام (العطـــش والدوار الذي

1ـ **كتاب الماء**، الجزء الثاني، ص388.
2ـ **كتاب الماء**، المجلد الأول، ص122.
3ـ المصدر السابق، المجلد الأول، ص143.
4ـ المصدر السابق، المجلد الأول، ص206.
5ـ المصدر السابق، المجلد الثاني، ص210.
6ـ المصدر السابق، المجلد الأول، ص207.
7ـ المصدر السابق، المجلد الأول، ص260.

يصيب الرأس) الماء شرباً وتبريداً. وفصلنا الكلام عليه في مقالة أن الماء لا يغذو»[1].

وفي حال ما إذا لم يثبت أن «العُماني الطبيب» هو صاحبنا، ورجحت أطروحة محمد كرد علي، فإن استقصاء أمر «أبي العباس العُماني» يظهر أن الرجل قد ذكره البيروني في كتاب: «الجماهر في معرفة الجواهر» في مناسبتين اثنتين: **أول** ذكرٍ له ورد في باب سائر ألوان الجواهر واليواقيت، وذلك في تضاعيف الحديث عن الياقوت، وخلوص البيروني إلى الحديث عن الياقوت الأكهب، إذ يورد ما يلي: ـ «قال أبو العباس العُماني: إن من الأكهب جنساً يسمى أوقلة وهو أقلها لوناً وأردأها وألينها»[2]، **وثاني** ذكرٍ له كان بمناسبة حديثه عن الضفادع، حيث يورد ما يلي: «قال الفراء اللخم هي الضفادع. قال أبو العباس العُماني: اللخم بالفارسية فيشواز وهو غير مؤذٍ والمؤذي خرست وهو المعروف بالكوسج»[3]. وفي الحالين معاً تترشح لنا أمور عن الرجل: **أولها:** أنه كان يعرف الفارسية، **وثانيها:** أنه كان يعرف علم المعادن، **وثالثها:** أنه كان يعرف علم الطب. هذا فضلاً عن كونه لربما كان معاصراً للبيروني، ومن ثم معاصراً لابن سينا بحكم كون هذين متعاصرين وبينهما مناظرات شهيرة.

لكن، ماذا لو كان «أبو العباس» هذا هو نفسه أبا محمد عبد الله بن محمد الأزدي الصحاري (ابن الذهبي)؟ الحال أن المطلع على كتاب الماء يكتشف أن هذه الخصائص الثلاثة المعرفة بالفارسية، والمعرفة بعلم المعادن، والمعرفة بعلم الطب، تتوفر في طبيبنا الصحاري.

عودٌ على بدء: من يكون يا ترى «العماني الطبيب»؟

1ـ **كتاب الماء**. المجلد الأول، ص81.

2ـ أبو الريحان البيروني: **كتاب الجماهر في معرفة الجواهر**، مكتبة المتنبي، القاهرة، ص78.

3ـ المصدر السابق، ص143.